النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني : الالفاظ النصرانية في لغة عرب الجاهلية (تابع)

٩ مفردات جاهلية لوصف ملابس النصارى

كان نصارى العرب يلبسون الثياب كغيرهم من اهل البادية لا يمتازون بها غالباً عن سواهم . غير انَّ في المعاجم وبعض الشعر الجاهلي مفرداتٍ وردت في وصفهم النصارى او شرحوها بقولهم انها من ثياب النصارى . نذكر هنا ما عثرنا عليهِ منها في مطالعاتنا

فمنها (الآخنيّ) قال في التاج (٩ : ١١٩) : الآخنيّ الثوب المخطَّط . وقال ابو سعيد : الآخنيّ اكسية سود لينة يلبسها النصارى . قال البعيث :

فكرَّ علينا ثمَّ ظلَّ يجرُّهُ كما جرَّ ثوبَ الآخنيّ المقدّسُ

(يريد بالمقدّس الراهب الذي رحل الى زيارة القدس) . وقال العجّاج (ed. Ahlwardt, p. ٦٧) :

كأنَّهُ متوّجٌ رديٌّ عليهِ كتّانٌ وآخنيُّ
اذ ينزلُ توّجَ حِميريُّ

وقال ابو الخراش :

كأنَّ الملاءَ المحضَ خلفَ كُراعهِ اذا ما غطّى الآخنيُّ المخدَّمُ

ومنها (الإضريج) كساء احمر من الخزّ ويقال ايضاً للخزّ الاصفر . وقيل بل هو كساء يُتَّخذ من المرعزّى من اجود صوفها . وقد ذكرهُ النابغة في ديوانهِ (العقد الثمين ص ٤) حيث قال يصف اعياد النصارى الغسّانيّين :

رقاقُ النعال طيّبٌ حُجزاتهم يُحيّون بالرَّيحان يوم السباسبِ

تُميِّمهُ بيضُ الولائد بينهم وأكسيةُ الإضريج فوق المشاجبِ

ومنها (الأَرَنْدَج واليَرَنْدَج) قال ابو عبيد في المخصَّص (١٠٣:٤) : « هو بالفارسيَّة رَنْدَه . قالوا هو ضرب من الأَدَم اسود » . وجاء في اللسان (٣٠٤:١٨) والتاج (٥٠:٢) انَّ اليَرَنْدج جلد اسود تُعمل منهُ الخِفاف يحتذون بها : وقد خصَّها الشمَّاخ بالنصارى فقال يصف نعاماً في برِّيَّة :

ودوَّيَّةٍ قفرٍ تَثنَّى نَعامُها كمشي النصارى في خفافٍ اليَرَنْدَجِ

ومنها (الرَّيط) وهي الملاءة المنسوجة قطعةً واحدةً وقد ذكرها الراعي في وصف بطرك النصارى (التاج ١١١:٧) فقال يصف ثوراً وحشيًّا :

يعلو الظواهر فردًا لا أليفَ لهُ مَشْيَ البطَرْكِ عليهِ رَيْطُ كتَّانِ

ومنها (الزُّنَّار) قالوا هو ما على وَسَط النصارى . وقال في التهذيب : ما يلبسهُ الذميُّ يشدُّهُ على وسطهِ . وقد اشتقُّوا منهُ فعلًا فقالوا زَنَّرهُ اذا ألبسهُ الزُّنَّار . وقد جاء الزنَّار في الشعر الجاهليِّ قال عديُّ بن زيد وكان معاوية يُعجب بهِ :

يا لَرَهْطي اوقدوا نارا انَّ الذي تحرون قد حارا
ربَّ نارٍ بتُّ ارمقُها تَقْضِمُ الندِيَّ والقارا
ولها ظبيٌ يؤجِّجها عاقدٌ في القَصْرِ زنَّارا

ويروى :

عندها خِلٌّ يُوَرِّها عاقدٌ في الجيد تِقْصارا

التِقصار القلادة . ومثلهُ لابن الضحَّاك (البكري ص ٣٧٠) :

بحُرمةِ النِصح وسلَّاقكم يا عاقد الزنَّار بالقَصْرِ

ومنها (الكتَّان) كما رأيت في شعر الراعي والعجَّاج

ومنها (المُوق) جمعها أمواق قال ابن سيده : « هو ضرب من الخفاق وقيل خفٌّ غليظ يلبس فوق الخفِّ وهو عربيٌّ صحيح » . وكان العباديُّون يتعاونون بالامواق قال النمر بن تولب (التاج ٧٣:٧ واللسان ٢٢٧:١٢) ويروى لسلامة بن جندل :

ترى النساج جا تَثنَّى خلفَهُ مَشْيَ العباديِّين بالأمواقِ

وكانت هذه الخفاف تتَّخذ من الجلد المدبوغ بالقرظ فيدعونهُ البِنْت ويتنعل بهِ السادة قال عنترة في معلَّقته :

بطلٌ كأنَّ ثيابهُ في سَرْحةٍ يُحذى نعالَ السِبْتِ ليس بتوأمِ

ومن لبس زُهّادهم (المِسْح) وهو ثوب الرهبان من شَعَر. قال جرير (التاج ٨: ٦٩) :

لا وَصْلَ اذ صرَمَتْ هند ولو وقفتْ لاستَفْتَتْني وذا المِسْحَين في القُوسِ

هذه بعض الفاظ نقلناها وقد صرّحوا فيها بذكر النصارى. ولا شكَّ انَّ الفاظاً أخرى دخلت في العربيَّة بواسطة النصارى من الحبش والروم والسريان كما يدلّ عليها اصلها الاعجميّ كالبُرْجد والإكليل والتاج والبُرنس وابي قلمون والقَلَنْسوة والجلباب والسندس وغيرها وان لم يخصّها الكتبة بالنصارى وحدهم

١٠ الفاظهم في الكتابة وادواتها

رأيت في فصل سابق انّ الكتابة دخلت بين العرب بفضل النصرانيَّة. فلا عجب ان تكون الالفاظ الدالّة على هذه الصناعة قد وردت خصوصاً في آثارهم ولذلك ترى ذكر ادوات الكتابة مقرونةً في اشعارهم بذكر الزبور وكتب الوحي التي كان الرهبان يتناقلونها في جزيرة العرب ويتأنّقون في كتابتها

فاوّل ما ذكروهُ (القَلَم) قال معاوية الجعفري (معجم البكري ص ٥٨٢) يصف منازل دارسة :

فانَّ لها منازلَ خاويات على غُلَّى وقفتُ بها الركابا
من الاجزاعِ اسفلَ من نُبَيْلٍ كما رجَعتَ بالقَلَمِ الكتابا

ومثلهُ لكعب بن زُهير (البكري ص ٤٤١) :

أتعرف رسماً بين رُهْمانَ فالرَّقَمْ الى ذي مراجيلٍ كما خُطَّ بالقَلَمْ

وقال لبيد في معلّقته :

وجلا السُّيولُ عن الطِلال كأنّها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها اقلامُها

وكانوا يكتبون على الجلود وجريد النخل والعظام والواح الرصاص. ومن اشهر الفاظهم (القِرْطاس) وهي فارسيَّة كالكاغد ويقال قِرْطَسٌ ايضاً. وقد وردت في الشعر الجاهلي قال المِخَشّ العُقَيلي يصف رسوم دار شبَّهها بخطّ الزبور على القِرْطاس قال (التاج ٤: ٢١٥) :

كأنَّ بحيث استُودعَ الدارُ اهلَها خَطَّ زَبُورٍ من دواة وقِرْطَسِ

ومنها (الأديم) اي الجلد كانوا يصقلونهُ ويرقّقونهُ فيكتبون عليهِ. قال المرقّش :

الدار قفرٌ والرسومُ كما رقَّش في ظهر الاديم قلَمْ

وكانوا يدعون الأَدَم الرقاق (ورَقاً) قبل ان يصطنعوهُ من القطن تشبيهاً بورَق الشجر في تصفيحه. قال جرير (البكري ص ١٠٦) :

لمن الديار بعاقلٍ فالأنعم كالوَحْي في ورَق الزَّبور المُعْجَمِ

وهو (الرِقّ) ايضاً جمعُ الرقوق للجلد وللصحيفة البيضاء والكلمة حبشيَّة الاصل كما يُظنّ قال الخالد بن الوليد المخزومي (الاغاني ٣ : ١١٢) :

هل تعرفُ الدارَ اضحت آيُها عجَبا كالرقّ اجرى عليها حاذقٌ قلَما

وفي القرآن : « رقّ منشور » . وقد دعوا الاديم والصحيفة البيضاء والحصير المنسوج خيوطهُ سيورهُ (قضيماً) قال النابغة (التاج ٩ : ٦٩) وفي وصف الرسوم :

كأن بجرَ الراحاتِ ذيولُها عليهِ قضيمٌ نمَّقَتْهُ الصوانعُ

وقد دعوا القرطاس والصُحُف البيض (بالمُهرق) وهي لفظة فارسيَّة مُهْرَه. قال الصغّاني : المهرق ثوب حرير ابيض يُسقى الصمغ ويُصقل ثمَّ يكتب فيهِ والكلمة قديمة قال الحارث بن حِلِّزَة في معلَّقته :

واذكروا حِلْفَ ذي المجاز وما قُدِّمَ فيهِ العهودُ والكفلاء
حذَرَ الجَوْر والتعدّي وهل ينقض ما في المهارق الاهواء

وقال ايضاً (التاج ٧ : ٩٦) في الأطلال شبَّهها بكتابة الحبش :

آيا طُعا كمهارقِ الحُبُش

وقال الاعشى يذكر الأدعية المرقومة في المهارق (اللسان ١٢ : ٢٤٧) :

ربِّي كريمٌ لا يكدِّر نعمَهُ فاذا تُبوشد في المهارق أنشدا

وكذلك كتبوا على (النَسيب) اي جريد النخل قال امرؤ القيس :

لمن طلَل ابصرتهُ فشجاني كخطِّ زبور في عسيبٍ يماني

وفي الهذليّات قولهُ :

او زُبَر حمَّرَ بينها احبارُها بالحِسْيريَّة في عسيبٍ ذابلِ

وكتبوا ايضاً على الالواح (واللَّوحُ) كلّ صفيحة عريضة من خشب او عظم كالكتف كانوا يكتبون عليها . وقد ورد في القرآن : « في لوح محفوظ »

(والرَّقيم) اللوح من الرصاص . قال اميَّة بن ابي الصلت يذكر اللوح الذي

كان مع اصحاب الكهف حيث رُقِمَ نسبهم واسماؤهم ودينهم (البيضاوي طبعة ليدن ص ٥٥٥):

وليس بها الّا الرَّقيمُ مُجاورًا وصيدَمُ والقومُ في الكَهْفِ هُجَّدُ

وسمّوا مجموع الاوراق المكتوبة (كتاباً) قال زهير في معلّقته عمّا يخفى في قلوب البشر فيدينهُ الله في الآخرة:

يؤخَّرْ فيوضع في كتابٍ فيُدَّخَر ليوم الحساب او يُعَجَّلْ فيُنقَمِ

وقال عديّ بن زيد الشاعر النصراني في الانجيل (شعراء النصرانيّة):

ناشدْتَنا بكتاب الله حُرْمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتفعُ

ودعوا الكتاب (بالقطّ) جمعهُ القُطوط وهو في الاصل الجلد الذي يُكتَب عليه وقال اميّة يذكر قومهُ بني اياد (التاج ٥: ٢٠٩):

قوم لهم ساحة العراق اذا سا روا جميعاً والقِطُّ والقَلَمُ

وقيل اراد بالقطّ هنا الانجيل. وقال مثلهُ الاعشى:

ولا الملكُ النعمانُ يومَ لقيتُهُ بغبطتهِ يُعطي القطوط ويأفقُ

اي يمنح الصكوك للجوائز. وكذلك (الصحيفة) فهي الكتاب ايضاً قال لقيط الإيادي (تاريخ ابن الاثير ١: ١٥٧):

سلامٌ في الصحيفة من لقيطٍ الى مَنْ بالجزيرة من إياد

ويروى: "كتابٌ في الصحيفة". وسمّوا الصحيفة (بالمِلَّة) قالوا انّها الرسالة المتنقلة من بلد الى بلد. قال صخر الغيّ في الهذليّات (ed. Kosegarten, p. 13):

أبلغْ كبيرًا غي مظلّةً تبرقُ فيها صحائفُ جُدُدُ
فيها كتابٌ ذُبِّر لمُفتريٍ يَعرفهُ اليهمُ ومَنْ حشَدوا

ومن اسماء الكتاب عندهم (المِصْحَف) وردت في شعر امرئ القيس للدلالة على كتب الرهبان قال:

فقا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعِرفانِ ورسمٍ عفت آياتُهُ منذ أزمانِ
أتت حِجَجٌ بعدي عليها فأصبحتْ كخطّ زبورٍ في مصاحفِ رهبانِ

ومن اسماء الكتب (المِجلّة) قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ١٩٢): «المِجلّة الصحيفة يُكتب فيها شيء من الحكمة» واللفظة آراميّة. قال النابغة يذكر الكتب المقدّسة التي كانت في ايدي بني غسّان:

بملئهم ذات الالوِ ودينهم قويمٌ فما يرجون غير العواقبِ

ومثلها (السِّفر) للكتاب من التوراة والانجيل وقد مرَّت وكذلك سمّوا الكتاب (سِجِلًّا) كما ذكر في المخصَّص (١٣ : ٨) وفي التاج (٧ : ٣٧) والكلمة لاتينيَّة (sigillum) بمعنى الخاتم والكتاب المختوم. وقد عرفوا (القِمَطْر) وهو ما يُصان فيه الكتاب فانشدوا (التاج ٣ : ٥٠٦) :

ليس بعلمٍ ما بي قِمَطْرُ ما العلمُ الّا ما وعاهُ الصَّدرُ

وكما ذكروا الكتاب كذلك ذكروا (الخطّ). قال حسّان بن ثابت (سيرة الرسول ص ١٥٤ ed. Wüstenfeld) في رسوم الدار :

عرفتُ ديار زينبَ بالكثيبِ كخطِّ الوحيِ في الورق القشيبِ

وكذلك قالوا في (السَّطْر) انهُ الخط والكتابة. واصل الكلمة من الآراميَّة. وروى في تاج العروس لبعضهم (٣ : ٦٧٢) :

اني وأسطارٍ سُطِرْنَ سطرًا لقائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرا

وقال الشمّاخ (اللسان ٥ : ٢١٩) :

كما خطَّ عبرانيَّةً بيمينهِ بتيماءَ حبرٌ ثمَّ عرَّض أسطُرَا

وكانوا يتخذون للكتاب سمةً وديباجة حسنة وهو (العُنْوان) قال ابو دؤاد الايادي (التاج ٩ : ٢٧٢) :

« لمن طالَ كعُنْوانِ الكتاب »

وكانوا يُمعنون بوشي الخطّ وتنسيقهِ. قال علقمة بن عبدة (معجم ما استعجم للبكري ص ٥٠٥) :

وذكَّرنيها بعد ما قد نسيتُها ديارٌ علاها وابلٌ متهتِّنُ
بأكنافِ شأتٍ كأنَّ رسومَها قضيمُ صَنَاعٍ في ادمٍ منمَّقِ

وقال المرقّش الاكبر وبهِ لُقّب مرقّشًا :

الدارُ قفرٌ والرسومُ كما رقَّش في ظهرِ الادمِ قلَمْ

وقال حاتم الطائي (الاغاني ٧ : ١٣٢) :

أتعرفُ آثار الديار توهُّمًا كخطّكَ في رقٍّ كتابًا مُنَمْنَما

وخصَّ رؤبة الانجيل بالتوشية فقال (ed. Ahlwardt., p. 149) :

اغبل احبارٍ وحَى مُتَنَسِّمُهُ ما خطَّ فيهِ بالمدادِ قلَمُهْ

واشاروا الى بعض حروف الكتابة كقول مرّار بن منقذ في وصف رسوم الدار يشبّه بحرف اللام ما مثّلَ منها:

وترى منها رسومًا قد عَلَتْ مثل خطِّ اللام في وَحْيِ الزُّبُرْ

وكان الكتبة يضاعفون العناية في كتابة صدرة العنوان. قال الاخنس بن شهاب (المفضّليّات ed. Lyall, p. 410):

لابنَيْ حطّانَ بن عوفٍ منازلُ كما رَقَّشَ العنوانَ في الرقِّ كاتبُ

وقال ابو الاسود على خلاف ذلك (الاغاني ١١: ١١١):

نظرتُ الى عُنوانِهِ فنبذتُهُ كنَبْذِكَ نعلًا أُخلِقَت من نعالِكا

وممّا ذكروهُ ايضاً من ادوات الكتابة (الدَّوَاة) قال سلامة بن جندل (ديوانهُ ص ١٥ من طبعتنا):

ان طَلَلٌ مثل الكتابِ المنمَّقِ خلا عهدُهُ بين الصُّلَيْبِ فأُطرقِ
أكبَّ عليهِ كاتبٌ بدواتِهِ وحادثُهُ في العين جدَّةُ مُهرَقِ

وكذلك صرّحوا بذكر (المداد) اي الحبر. قال المتلمّس يذكر الكتاب الذي اعطاهُ عمرو بن هند لعاملهِ في البحرين يسرُّ اليهِ بقتلهِ (ياقوت ٤: ٢١٨):

والقيتُهُ بالثني من بطن كافرٍ كذلك أُفني كلَّ قطِّ مضلَّلِ
رضيتُ بما لمّا رأيتُ مدادَهُ يحول بها التيّارُ في كلِّ جَدْوَلِ

ومثلهُ (النِّقس) جمعهُ انقاس قال زهير بن عاصم (البكريّ ص ٥٢٤):

انَّ بلادي لم تكن أملاسا جنَّ خطَّ القلَمُ الأنقاسا
من النبيِّ حيث اعلى الناسا فلم يدَعْ لُبسًا ولا التباسا

وفي الاصل: الانفاسا بالفاء. وهو تصحيف

١٢ بعض الفاظ اخرى متفرّقة لنصارى العرب

نذكر هنا بعض الفاظ وردت في آثار الجاهليّة بخصوص النصارى واوّلها اسم (النصرانيّ) وجمعُها النصارى. قال العجّاج في مفردها (ديوانهُ ص ٦٩):

كما يعودُ اليدَ نصرانيُّ ويمنةً لزُورها عِلِيُّ

وقال جابر بن حُنَيّ في جمعها (شعراء النصرانيَّة ص ١٩٠):

وقد زعمت جراء انَّ رماحَنا رماحُ نصارى لا تخوضُ الى دم

وقال طُخَيم بن الطخمة الاسدي يمدح قوماً من اهل الحيرة من بني امرئ القيس ابن زيد مناة بن تميم رهط عديّ بن زيد (ياقوت معجم البلدان ٢ : ٩٥٧):

بنو السِّمْط والجدَّاء كلّ سَمَيْدَعٍ لهُ في العروق الصالحات عروقُ

واني وان كانوا نصارى أُحبهم ويرتاحُ قلبي نحوهم ويَثُوقُ

وقال القطاميّ يذكر نساء النصارى في صومعهنّ (التاج ٨ : ٩٩):

يَلُذْنَ بأعفار الحياض كأنّها نساء النصارى أصبحت وهي كُفَّلُ

ومثلهُ لحسّان (ص ٢١ من طبعة تونس):

فرحت نصارى يثرب ويهودُها لمّا توارى في الضريح المُلحَدُ

وعبدالله بن الزبير في حجّار بن ابجر العجليّ (الاغانيّ ١٣ : ٤٦):

مليلَ النصارى سُدْتَ عِجْلًا ومن يكُنْ كذلك اهلٌ ان يَسود بني عجلِ

وقال في التهذيب: وجاءت أنصار جمع نَصْران (اي النصرانيّ) وانشد:

لمّا رأيتُ نبطًا أنصارا

يريد نصارى من النبط (اللسان ٧ : ٦٨ والتاج ٣ : ٦٩)

وكذلك قالوا في مؤنث نَصْرَان « نَصْرانة » قال ابو الاخزر يصف ناقتين طأطأتا رأسيهما من الاعياء فشبههما بالنصرانيَّة تطأطئ رأسها بصلاتها :

فكِلتاهما خرَّتْ وأسجدَ رأسها كما أسجدَتْ نَصْرانةٌ لم تحنَّفِ

ويقولون منهُ فعلًا فقالوا « تنصَّر » اي دخل في دين النصرانيَّة. قال حاتم الطائيّ يذكر ديار لخيان وكانوا نصارى (الاغاني ١٦ : ١٠٤):

وما زلتُ اسعى بين نابٍ ودارةٍ بلِخيانَ حتى خفتُ ان أتنصَّرا

وقال جعفر بن سراقة احد بني قرَّة يهجو جميل بن معمر وقومهُ (الاغاني ٦ : ١٥):

نحنُ منعنا ذا القرى من عدوّنا وعُذرةَ اذ تلقى يهودًا ويعثرا

منعناهُ من علياء مجدٍ وانتمُ سفاسيفُ روحٍ بين قرحٍ وخيبرا

فريقانِ رهبانٌ باسفل ذي القرى وبالشام عرَّافون فيمن تنصَّرا

ومما خصُّوهُ بالنصارى (الإرَان) وهو سرير الميت او تابوت من خشب كانوا يحملون عليهِ موتاهم . هكذا رواهُ شارح ديوان طرفة (شعراء النصرانيَّة ٣٠٠) حيث قال في معلَّقتهِ يصف ناقتهُ :

أمُون كألواحِ الإرَان نشأتُها على لاحبٍ كأنَّهُ ظهرُ بُرْجُدِ

قال التبريزي في شرح المعلَّقات (ed. Lyall, 33) : الإرَان تابوت كانوا يحملون فيهِ ساداتهم وكبراءهم دون غيرهم . وقال امرؤ القيس : (ed. de Slane p. ٣٠)

وعَنَس كألواحِ الإرَان نَسأتُها على لاحبٍ كالبُرْدِ ذي الحِبَراتِ

قال الشارح (id. p. 99) : الإرَان سرير موتى النصارى

ومنها (الناوُس) جمعها نواويس . قال في التاج (٤ : ٢٥٦) النواويس مقابر النصارى . والمرجَّح ان اصل الكلمة من اليونانيَّة (ναός) ومعناها الهيكل والمدفن

ومما ذكروهُ للنصارى (البُوق) وهو النفير الذي يُنفَخ فيهِ . انشد الاصمعي (التاج ٦ : ٣٠١) للعلبكم (كذا) الكنديّ :

« زَمَّر النصارى زمَّرت في ابوقِ »

يريد هنا الروم الذين كانوا ينفخون الابواق في حفلاتهم

ومن غريب ما نسبوا الى النصارى اكرام (الوثن) جاء في المفضَّليات (ed. Lyall ٥٤٩) وفي اللسان (١٧ : ٣٣٤) :

يطرفُ الفتاةُ بأبوابهِ كطَرْف النصارى بيت الوَثَنْ

(قال) « الوثن الصليب » . وكذلك دعوا الصليب والتماثيل التقويَّة عند النصارى (اصناماً) . كما دعاها جرير (بالرُّون) بمعنى الصنم ايضاً . حيث قال (تاج العروس ٩ : ٢٢٩) :

« مَشْي الهرابذةِ حجُّوا بيعة الرُّونِ »

وفي هذه الاقوال غلطٌ فاحش لان النصارى لم يعبدوا قطّ الوثن او الصنم او الرُّون . فضلاً عن كون الهرابذة هم المجوس وانما يكرّمون الصليب والصور لما تمثل لهم من شخص السيد المسيح المصلوب واولياء الله . وشتان بين هذا وعبادة الاصنام

(لهُ بقيَّة)